



الفشل المدرسي، قراءة في الأدبيات السوسولوجية: من سوسولوجيا إعادة الإنتاج إلى سوسولوجيا العلاقة بالمعرفة

School failure, reading in sociological literature: from the sociology of reproduction to the sociology of the relationship to knowledge

L'échec scolaire, lecture dans la littérature sociologique: de la sociologie de la reproduction à la sociologie du rapport à la connaissance

د. غنية ضيف

قسم علم الاجتماع والديمقراطية، جامعة الجزائر 2

ط.د. مريم حزوري

قسم علم الاجتماع والديمقراطية، جامعة الجزائر 2

تاريخ الإرسال: 2019-02-16 - تاريخ القبول: 2020-06-18 - تاريخ النشر: 2022-02-28

ملخص

لماذا يفشل بعض التلاميذ مدرسيا؟ سؤال تكرر طيلة القرن الماضي ومازال يتكرر في حقل العلوم الاجتماعية بنفس الروح ضمن أطر نظرية وبأدوات معرفية تحاول ملامسة واقع هذه الظاهرة المعقدة وتجلياتها ضمن أطر تفسير الفشل. من هذا المنطلق يتحدد رهان هذا المقال انطلاقا من تصور تمهيدي يقوم على محاولة طرح الأدبيات السوسولوجية الكلاسيكية التي قاربت الفشل المدرسي بأدواتها المعرفية والمنهجية والكشف عن المحددات الجديدة ضمن مقاربة العلاقة بالمعرفة من منطلق منهجي يقوم على الهدم والبناء لرصد الاختلاف. طبعاً حدود هذا المقال لا تسمح باستعراض كل الأدبيات في الحقل المعرفي والإحاطة بكل أطروحاتها ولكنها ستستعرض ذلك في إطار بعض النماذج التي أنتجتها سوسولوجيا التربية الفرنسية.

الكلمات الدالة: الفشل المدرسي؛ الأصل الاجتماعي؛ العلاقة بالمعرفة؛ الذات؛ التاريخ المدرسي للتلميذ

Abstract

Why do some students fail school? It is a question that has been repeated throughout the past century and is still being repeated in the field of social sciences, in the same spirit within theoretical frameworks and cognitive tools that have attempted and are attempting to touch the reality of this complex phenomenon and its manifestations, within the frameworks of the

interpretation of failure. From this standpoint, the wager of this article is determined from an introductory perception based on an attempt to present classical sociological literature that approached school failure with its cognitive and methodological tools, and to reveal the new determinants within the approach to the relationship with knowledge, from a systematic standpoint based on demolition and construction to monitor the difference. Of course, the limits of this article do not allow reviewing all the literature in the field of knowledge and taking note of all its theses, but it will review this within the framework of some models produced by the French sociology of education.

Keywords: school failure; social origin; relationship to knowledge; Self; subject; student's school history

Résumé

Pourquoi certains élèves échouent à l'école ? Une question qui s'est répétée tout au long du siècle dernier et qui se répète toujours dans le domaine des sciences sociales dans le même esprit au sein de cadres théoriques et d'outils cognitifs qui tentent de comprendre la réalité de ce phénomène complexe, et ses manifestations dans les cadres de l'interprétation de l'échec. De ce point de vue, le pari de cet article est de déterminer à partir d'une approche introductive basée sur une relecture de la littérature sociologique classique sur l'échec scolaire à l'aide d'outils cognitifs et méthodologiques, les nouveaux déterminants de l'approche en termes de relation au savoir selon une approche systématique de déconstruction et de construction. Cet article ne prétend pas de passer en revue toute la littérature produite dans ce domaine, mais il se limitera aux travaux représentatifs de la sociologie française de l'éducation

Mots-clés: l'échec scolaire; l'origine sociale; le rapport au savoir; le sujet; l'histoire scolaire de l'élève.

مقدمة

الفشل المدرسي ظاهرة معقدة تتداخل فيها عوامل داخلية وخارجية وبداية النقاش الأكاديمي حوله هو معرفة هل معالجة هذه الظاهرة يجب أن تكون على المستوى الفردي، أو الجماعي؟ أما عن العوامل المسببة لهذه الظاهرة، فقد كشفت الأبحاث التي ناقشت مسألة الفشل المدرسي من جوانب مختلفة، عن الكثير من المحددات لتفسير أو فهم هذه الظاهرة تتباين بين التخصصات الأكاديمية.



وقد ناقشت الأبحاث السوسولوجية الكلاسيكية التي أجريت في فرنسا خلال فترة الستينيات والسبعينيات من القرن 20 وجود علاقة إحصائية طردية بين الفشل المدرسي والأصل الاجتماعي للتلميذ، أما الاتجاه الثاني فهو الأبحاث التي تبنت سوسولوجيا العلاقة بالمعرفة ضمن سوسولوجيا التربية المعاصرة وهي مقارنة ميكروسوسولوجية التي اتخذت التلميذ وحدة بحثها باعتباره "ذاتاً" لها خصوصيتها، وعلاقته بالمعرفة هي التي تحدد نجاحه مدرسياً من فشله بغض النظر عن أصله الاجتماعي.

1. من طفل إلى تلميذ: تعلمات وتعثرات.

مدخل إجتماعي لقراءة الفشل المدرسي: "الذهاب الى المدرسة ليس حدثاً عابراً بالنسبة للطفل وأهله، إنها عملية عبور كبرى، يحدث فيها أن يخرج الطفل من عالم الأسرة المحدود مهما كان اتساعه، الى عالم المدينة - العالم الخارجي-، ولأول مرة يصبح هناك مرجعية مجتمعية جديدة وأساسية في حياته توازي مرجعية الأسرة وتتفاعل معها، إنها بداية الخروج من قانون الوالدين والعلاقات الأولية الى قانون المدينة الذي يشكل أحد روافد الدخول في العضوية المجتمعية. مرجعية المعلم وقانون المدرسة يُدخلان على المرجعية الوالدية وقانون الأسرة الكثير من الدينامية تعديلاً واثراً ومشاركة، الطفل لم يعد حكراً على والديه، عليه التعامل مع هذا العالم الجديد بمرجعياته وأنظمتها وعلاقاتها وتفاعلاتها." (المركز التربوي للبحوث والإنماء، 2018)

هذا التفاعل مع العالم الجديد هو الذي يوضع الطفل في وضعيات تعليمية ضرورية للتمكن من إندماجه في الحياة المدرسية والحياة الإجتماعية ككل. وأول ضرورة يجد الطفل نفسه امامها عند إنتقاله إلى المحيط المدرسي هي ضرورة تعلم لغة التعبير، فمنذ البداية يمكن اعتبار الطفل كأنثا متكلماً، يتواصل، إلا أنه في مراحل نموه الأولى يستخدم ما هو غير لفظي كأنه لفظي فيُعبّر باستخدام الجسد والإيماءات، والدخول إلى المدرسة هو الذي يُحفز التغيرات المهمة في نظامه التواصلية، لأن قدرته على التعبير بحركات الجسد والإيماءات قد تقيده في محيطه العائلي مع الاشخاص المقربين إلا أنها تصبح غير مفيدة إذا ما إنتقل إلى محيط آخر مع أفراد آخرين - المحيط المدرسي على سبيل المثال- وهو ما يفرض على الطفل أن يتعلم كيف يُعبّر بطريقة أخرى، من خلال لغة مفهومة



لكل وهو ما أشار إليه Charlot في قوله بأن "دراسة العلاقة بالمعرفة هي دراسة الذات وهي في مواجهة ضرورة التعلم" (Charlot, 1997, p35) فضرورة تعلم لغة التعبير هي أول ضرورة يجد التلميذ ذاته أمامها للتعبير عن ذاته وعن حاجات، ولم يقتصر التحاق التلميذ بالمدرسة على اكتسابه لصفة تلميذ أو متعلم فقط بل ذهبت الأبحاث الأكاديمية السوسيو تربوية إلى أبعد من ذلك "فمنذ أكثر من عقد من الزمن تم التركيز على الدور الأساسي للتلميذ في النظام المدرسي وتوصل بعض الباحثين في سوسولوجيا التربية على غرار Philippe Perrenoud و René La Borderie إلى صياغة مفهوم "مهنة التلميذ" "métier d'élève"، هذا المفهوم الذي تم تطويره للدلالة على شيئين أولهما هو أن في المدرسة يوجد عمل للقيام به إذاً هناك عمليات تستوجب التنفيذ، إلتزامات، قوانين يجب إحترامها، كفاءات يجب إمتلاكها لتحقيق الإلتظارات من التعليم، وثانيا هو أن التلميذ ليس "عامل" كأي عامل لأنه لا يتلقى راتباً ولا يأتي إلى القسم لصناعة الثروة ولكنه يأتي لبناء ذاته من جميع النواحي". (Gourdin, 2016, p10).

فضرورة التعلم هنا تتمحور حول ضرورة تعلم طريقة التفكير، كيفية التصرف، طريقة فهم المعاني والخطاب المدرسي وما يمليه من مواد قانونية، علمية، بيداغوجية وتربوية، كل هذا خلال مسار دراسي مليء بالتعلمات، التفاعلات، الإمتحانات، النجاحات المدرسية والتعثرات أحيانا، فيصبح التلميذ في وضعية فشل مدرسي والذي لا يمكن اعتباره سمة يرثها الفرد عن عائلته أو نتيجة لعوامل اجتماعية وثقافية. بل هو موقف يُبنى شيء فشيء مروراً بمواقف أخرى وممارسات وبلقاءات وأحداث واضطراب في التاريخ المدرسي غير منفصل عن التاريخ الفردي". على حد تعبير شارلو Charlot (du rapport Charlot : au savoir, 1999, p17,34)

2. الفشل المدرسي في الأدبيات السوسولوجية الكلاسيكية "أطروحات إعادة الإنتاج"

ناقشت الأبحاث السوسيو تربوية الأكاديمية التي أجريت في فرنسا خلال فترة الستينيات والسبعينيات من القرن 20 مسألة الفشل المدرسي وقد ذهب معظمها إلى وجود علاقة إحصائية طردية بين الفشل المدرسي والأصل الاجتماعي وفي هذا السياق يقول جورج لاباساد Georges Lapassade في كتابه (مقدمات في علم الاجتماع) مع روني لورو René Lourau أن "المدرسة ليست مجرد وسيط محايد لنشر المعرفة والقيم، أو مكان يتم



فيه الاتصال ما بين المعرفة والطلاب، بل هي فوق ذلك كله تعبير عن الأيديولوجيا السائدة وإحدى الأدوات المهمة لنشرها" وإنطلاقاً من هذا التحديد لدور المدرسة باعتبارها وسيطاً غير محايد لنشر المعرفة، يمكن التساؤل كيف يشكل الفشل الدراسي أداة من أدوات الضبط، وفرضاً لتعسف ثقافي بلغة "Pierre Bourdieu" (عزيز مشواط، 2018)، فمنذ 1964 أكد كل من بيير بورديو Pierre Bourdieu وجون كلود باسرون Jean-Claude Passeron هذه الفكرة من خلال كتابتهما "وقد انطلقا من فرضية مفادها أنه ليس هناك تساو في الحظوظ بين المتعلمين في الإلتحاق بالجامعة وأنه هناك تفرقة تبعاً للأصول الاجتماعية للمتعلمين إذ أن حظوظ ابن الإطار - ذو المكانة الاجتماعية المرموقة- في الإلتحاق بالتعليم العالي هي أكثر ب 80 مرة من حظوظ ابن الفلاح وأكثر ب 40 مرة من حظوظ ابن العامل" (Bourdieu et Passeron, 1964, p12)، فالمدرسة حسبهما "تقوم بتقييم كفاءات الافراد حسب معايير الطبقة المهيمنة، وأنه إذا فشل بعض الأطفال دراسياً فهذا سيكون بسبب أصلهم العائلي واليوم بسبب أصلهم الثقافي أو العرقي والاثني، والاختلاف في المكانة الاجتماعية بين الأفراد يشكل عائداً اجتماعياً وثقافياً" (Bourdieu et Passeron, 1970, p14).

وفي توضيح لنظرية العائق التي تبنتها معظم الأطروحات المتعلقة بإعادة الإنتاج، فقد طرح جون أوغبي "John Ogbu" ثلاثة أشكال من العوائق وهي أولاً/الحرمان والعائق هنا هو ما يفتقده الأطفال للنجاح كالصعوبات في العائلة ثانياً/الصراع الثقافي و يحدث هنا العائق عندما تكون الثقافة الأسرية غير متوافقة مع الثقافة التي يفرضها النجاح المدرسي، وثالثاً وأخيراً/الضعف المؤسسي والعائق هذه المرة هو من إنتاج المؤسسة المدرسية نفسها وذلك من خلال الطريقة التي تتعامل بها مع أبناء الأسر الشعبية".

(Charlot, 1997, p27)

في نفس السياق طرح بازيل برنشتاين Basil Bernstein مفهوم "الإعاقة اللغوية لدى أطفال الطبقة الشعبية بسبب الاختلاف بين اللغة المتحدث بها في عائلاتهم وبين لغة المدرسة الأصلية" (Bernstein, 1975, p200). فالطفل الذي يفشل دراسياً هو ذلك الطفل الذي يتعرض لإقصاء اجتماعي يطبع حياته ويؤثر على تاريخه، إنه إذن ميكانيزم من



ميكانيزمات الضبط التي تعتمد عليها المؤسسة التربوية باعتبارها إحدى أجهزة القمع الرمزي حسب تعبير لويس ألتوسير Louis Althusser (مشواط، 2018).

وقد تم تناول مسألة اللامساواة المدرسية والوظيفة الحقيقية للمدرسة أيضا من قِبَل كريستيان بودلو Christian Boudelot و روجي استابلي Roger Establet إذ توصلا إلى أن " للمدرسة وظيفة حقيقية تشتغل وفقها وراء وهم المدرسة الديموقراطية، المجانية، الموحدة، التي تُوحد ما تقسمه السياسة وتستقبل الأطفال وتُوحدهم في ظل ثقافة واحدة، فكل التلاميذ سواسية ويتلقون نفس الخطاب المشترك حيث يختفي أصل الطبقة الإجتماعية التي ينتمي إليها التلاميذ، إلا أن الواقع أثبت أن المدرسة تقسم المجتمع إلى طبقتين متعاكستين تظهر فيها سيطرة للطبقة البرجوازية على طبقة العمال وهو ما يعيدنا لفكرة الوظيفة الإيديولوجية للمدرسة التي طرحها Louis Althusser إذ أن الإيديولوجية تُخضع جميع الأفراد فيتمثلون بطريقة إنتاجها، قانونها، فالمدرسة الإبتدائية تُخضع الكل إلى ممارسات الإيديولوجية البرجوازية على حد سواء إن كانوا أطفال المستغلين أو المستغلين، فهذا الفعل هو الذي يحدد طبيعة الممارسات المدرسية كما هي في واقع المدرسة الإبتدائية وهذا الشكل تصنع البرجوازية الشعب الذي تريده من خلال المدرسة." (Establet et Boudelot, 1971)

وفي السياق نفسه ولكن بآليات معرفية ومنهجية مختلفة، قدم ريمون بودون Raymond Boudon أطروحته التي فند فيه فكرة أن تكون المدرسة هي الأداة التي تركز ظاهرة الفشل المدرسي وقد خالف بهذا Pierre Bourdieu في كتابه "عدم تكافؤ الحظوظ" (1973) مبينا أن التفاوت بين الفئات لا يعزى إلى المدرسة، بل إلى الأصول الإجتماعية، لأنه ناتج عن استراتيجيات فردية تتخذها الأسر وفق موقعها الاجتماعي وطموحها وقدرتها المادية، وأن اختياراتها في دفع أبنائها لمواصلة دراستهم أو كبح تطلعاتهم لا علاقة لها بالمنظومة التعليمية، فالمستوى التعليمي للفرد غير مستقل عن أصله الإجتماعي فالمستوى المدرسي هو عامل وناتج في آن واحد للمستوى الإجتماعي. (Boudon, 1975). أي أن "المدرسة ليست المجال الذي يفرض منطقه على الفاعلين، بل هو حقل أين ينجز الأفراد إستراتيجياتهم، فاللامساواة التعليمية هي نتيجة لامتحان هذه الإستراتيجيات المختلفة للفاعلين الذين يشغلون وضعيات مختلفة في المجال الاجتماعي." (بودبزة، ص6)



إذا فالمنظرين لسوسولوجيا إعادة الإنتاج يرون بأن التلميذ الذي يُعاني من الفشل الدراسي غالبا ما يفتقد إلى الموارد الفكرية الثقافية والسبب في ذلك هو العائلة، لذلك تُبنى سلسلة طويلة من الأصول الاجتماعي، الثقافي تكون هي السبب في الفشل المدرسي للتلميذ.

ولكن هناك ابناء لعائلات شعبية ينجحون بالرغم من كل شيء ... فلا بأس بأخذ نظام العادات المكتسبة Habitus كجانب من جوانب التأثير على الحياة المدرسية للتلميذ باعتبار أن التاريخ المدرسي لا يُنتج في فراغ اجتماعي، ومن الممكن أن تكون العمليات التي تنظم تاريخ التلميذ مشتركة بين التلاميذ الذين هم من أصل واحد... ولكن بالمقابل لا يمكن القول إطلاقا بأن الأصل الاجتماعي هو السبب الوحيد في الفشل المدرسي، فكيف يمكن تفسير وضعيات الفشل المدرسي لدى التلاميذ على إختلاف أصولهم الإجتماعية؟

3. في نقد سوسولوجيا إعادة الإنتاج

"ليس هناك فشل مدرسي، بل يوجد وضعية فشل مدرسي"، هي الفكرة المحورية لمقاربة مجموعة البحث ESCOL ورئيسها برنار شارلو، وانطلاقا من مجموعة تساؤلات مثل: لماذا يعاني بعض التلاميذ من الفشل المدرسي؟ لماذا هذا الفشل منتشر في العائلات الشعبية أكثر منه في باقي العائلات؟ لماذا بعض أطفال العائلات الشعبية ينجحون مدرسيا بالرغم من كل شيء؟، توصلت مجموعة الباحثين في فرقة ESCOL إلى أنه يجب دراسة فشل التلميذ من منطلق العلاقة بالمعرفة. هذه العلاقة التي تتمظهر في ثلاثة أبعاد هي: العلاقة بالذات المتعلمة Rapport à soi، العلاقة مع الآخرين Rapport aux autres، العلاقة مع العالم Rapport au monde.

وقد جاءت الأبحاث التي قامت بها مجموعة البحث ESCOL خلال 1987 بقيادة برنار شارلو Bernard Charlot وعضوية اليزابيت بوتتي Elisabeth Bautier وروشكس Rochex نتيجة لرد فعل نقدي على الطريقة التي طرحت بها السوسولوجيا الكلاسيكية مسألة الفشل المدرسي. وكانت الفكرة المنطلق منها هي أن الأصل الاجتماعي للتلميذ ليس هو السبب في فشله مدرسيا لأن هناك ابناء لعائلات مهمشة من أصل اجتماعي متواضع إلا أنهم ينجحون بالرغم من كل شيء، وبالمقابل هناك ابناء لعائلات برجوازية يفشلون دراسيا بالرغم من أصلهم الاجتماعي المميز، فلا بأس من أخذ



الأطروحة القائلة بتأثير البيئات الاجتماعية على فشل التلميذ، ولكن لا بد من الرجوع إلى الاتجاه القائل بدور الذات - التلميذ- وتاريخه المدرسي في نجاحه أو فشله، الأمر الذي أدى إلى تسليط الضوء على جانب آخر من الحياة المدرسية للتلميذ وهو علاقته بالمعرفة والتي عرفت "كمجموعة من التصورات والتوقعات والأحكام التي تؤثر في كل من المعنى والوظيفة الاجتماعية للمعرفة والمدرسة وعلى الذات أيضا." (Charlot, 1997, p93)

كما "تعتبر كعملية عن طريقها يستطيع الذات صناعة معارف فردية جديدة انطلاقا من المعارف التي اكتسبها تمكنه من التفكير ومن استشعار العالم الطبيعي والاجتماعي من حوله." (Mosconi, 2005, p.75)

فحسب Bernard Charlot المدرس الجيد، المفيد هو الدرس الذي يتم فيه بناء علاقة التلميذ بالعالم، بذاته المتعلمة وبالأخرين" -وسنخص هنا المعلم-، إذا نحن هنا بصدد البحث في إطار المثلث البيداغوجي (العلاقة معلم-متعلم والعلاقة متعلم-معرفة) و" تندرج علاقة المعلم بالمتعلم تحت مسمى التعاقد البيداغوجي الذي يتم غالبا بين الطرفين ويُقنن بطريقة مضمرة وضعيات التعليم ويقوم على إنتظارات الطرفين معا وعلى عادات وآليات مدرسية ضمن فعل تواصل متعدد الأبعاد." (شعلالي، 2015)، "أما علاقة المتعلم بالمعرفة فتتعلق بإستراتيجيات وأساليب التعلم التي ينتهجها التلاميذ ومشاركتهم في بناء معارفهم الجديدة انطلاقا من معارفهم السابقة المكتسبة داخل وخارج المؤسسة المدرسية." (Co-construire l'avenir, 2015)

وسنركز هنا على المستوى المتعلق بموضوع المعرفة وطبيعتها والأسس التي تنشأ عليها علاقة التلميذ بهذه المعرفة، هذه الأسس نفسها التي تظهر في سياق تاريخه المدرسي على شكل أفعال، ممارسات، تفاعلات وعلاقات.(كل علاقة بالمعرفة هي علاقة اجتماعية بالمعرفة) يقول Bernard Charlot، والتلميذ مثله مثل أي فرد يعيش في عالم منظم بعلاقة اجتماعية والعلاقة بالمعرفة ماهي إلا أحد التعبيرات عن هاته العلاقات الاجتماعية، فأحيانا لا تكون المعرفة في حد ذاتها هي الموضوع الذي يُحفز التلميذ على التعلم بقدر ما تكون العلاقة بين التلميذ والمعلم هي الموضوع مثلا: التلميذ يحب الرياضيات لأنه يحب معلم الرياضيات" (Charlot, 1997, p86-87)، هنا نرى بأن العلاقة الاجتماعية بين المعلم والتلميذ هي التي أضفت على المعرفة معنى وأهمية لدى التلميذ



وجعلته يسعى لاكتسابها، وهذا يُؤكد الفكرة القائلة بأنه "لا توجد معرفة عملية في حد ذاتها بل إن الفرد هو الذي يُحدد ما إذا كانت عملية أم لا فالأمر نسبي" (Charlot,1997 :p71) ، وهذا هو السبب وراء الجزم بأن معرفة أي شيء هي في الواقع علاقة بالمعرفة وكل علاقة بالمعرفة هي علاقة اجتماعية بالمعرفة. إضافة إلى جانب العلاقة بين التلميذ والآخر-المعلم- والمعنى الذي تضيفه على المعرفة، وفي سياق الحديث عن موضوع المعرفة وطبيعتها، لابد من التساؤل: ما نوع المعرفة التي يكون لها معنى لدى المتعلم وتجلب اهتمامه وتركيزه؟ وهل العلاقة بالمعرفة القائمة بالمدرسة هي نفسها التي يسعى التلميذ إلى إنشائها؟

"غالبا ما تتأسس العلاقة بالمعرفة القائمة في المدرسة على تصورات عقلانية للحقول المعرفية لأن الخطاب المدرسي يبني على معارف منظمة حسب تقطيع اصطناعي لحقول معرفية ، عقلية ، مجردة، ومطلقة، كما تتأسس على نسق مضبوط قائم فقط على العلاقات الداخلية لمجالها ، وينبني الافتراض الذي يقوم عليه التعلم المدرسي على الاعتقاد بأن المعرفة تنبثق فقط عن البعد الأنطولوجي- حسب تعبير Piaget أي السؤال (ما هو هذا الشيء؟)، هكذا انحصرت مضامين المعرفة التي تُروج لها المدرسة في البحث عن الطبيعة الحقيقية لكل شيء وما هي مكوناته وبُنيته، وقد سعت هذه الطرق في الإدراك والفهم وانتاج المعرفة إلى خلق مجتمع توافقي ذي بعد واحد على حد تعبير Herbert Marcos.

والنجاح المدرسي يتوقف على مدى استيعاب تلك المعرفة التي يمكن تسميتها بالمعرفة القطعية النهائية" (شعالي، 2015) إلا أن القارئ لأدبيات الدراسة حول موضوع المعرفة ذات المعنى لدى التلميذ أو الأسس التي تُبنى عليها علاقة التلميذ بالمعرفة يجد أن "هذه العلاقة تتأسس على جانبيين، الجانب الأول الذي يمثل مجموعة الإنتظارات والتصورات والأحكام حول المعنى والوظيفة الاجتماعية للمعرفة، فالمتعلم يرغب في المعرفة التي يُثمنها وسطه وتجعله شبيها بالكبار المميزين في محيطه أو تحقيق هدفه في الاستقلالية، أما الجانب الثاني فيُتمثل رغبة التلميذ في المعرفة التي تُجيب عن تساؤلاته وتُمكنه من تفسير وفهم الإشكالات المطروحة في محيطه وتلك المتعلقة بذاته، من أجل بناء وتنمية إدراكاته وبُنياته المعرفية بغرض رفع القدرة على التفكير" (شعالي، 2015)،



وبالمقارنة مع مضامين المعرفة المدرسية نجد أن المعرفة التي تثير الرغبة في المتعلم ليست نفسها المتضمنة في المناهج الدراسية، الأمر الذي قد يؤدي بالتلميذ إلى الفشل الدراسي نتيجة ما سماه Bernard Charlot علاقة غير جيدة مع المعرفة *un mauvais rapport au savoir*، فحتى يكون للمعرفة المدرسية معنى لدى التلاميذ "ينبغي أن تعتمد على مرجعيات نابعة من ممارسات اجتماعية تُموضع المتعلم في محيطه العائلي والاجتماعي والاقتصادي، ثم تفتح تدريجيا على الأسئلة الكونية والأسئلة المتعلقة بالمستقبل والآمال، وبذلك ستجعل المدرسة من المعرفة موضوع اهتمام ورغبة وأداة للتحفيز والفعل، وتُمكن التلميذ من إيجاد معنى لوجوده بالمدرسة وتجد له موقعا نشطا بها، وهذا ما يُمكن من الحد من تأثير أحد أسباب الفشل المدرسي والذي يتجلى في غياب الاهتمام والتحفيز الملحوظ الناتج عن التفاوت بين العلاقة بالمعرفة القائمة بالمدرسة والعلاقة بالمعرفة التي يسعى المتعلم لبنائها" (شعالي، 2015).

كما طرح عالم النفس والتربية J.Y. Rochex أيضا فكرة " المعنى الذي يضفيه المتعلم على المعرفة وذلك في محاضرتة بعنوان: " *Entre apprentissages et socialisation: le rapport au savoir*"، عندما سجل ملاحظتين أساسيتين حول موضوع العلاقة بالمعرفة التي عرفها كعلاقة معنى وقيمة إذ أن الفرد يُثمن ولا يُثمن المعارف حسب المعنى الذي يضفيه عليها، هذا المعنى الذي يكون حسب قيمة المعرفة في حياة هذا المتعلم" (Rochex, 2010, p.9).

وهناك جانب آخر يفترضه فهم وضعيات الفشل الدراسي التي يواجهها التلميذ، هو تحليل وفهم علاقة هذا التلميذ بالعالم وبالتعلم، هذا الجانب الذي ينطلق من فكرة أن التلميذ الذي لم ينجح مدرسيا، هو ليس عنصر ناقص وانما يحتاج إلى نشاطات وممارسات لتمكينه من النجاح، وهذا من خلال مساعدته على بناء علاقة جيدة مع المعرفة *un bon rapport au savoir*، وحسب Bernard charlot هذا يفترض عدة أشياء أولها "قراءة إيجابية لأفعال التلاميذ أي أن لا نركز على ما لا يستطيع التلميذ القيام به، بل أن نركز أيضا على الجانب الذي نجح فيه فالقراءة السلبية تُركز على أوجه الضعف أما القراءة الإيجابية فتسعى لفهم كيف وصل التلميذ إلى هنا؟ معنى أفعاله؟ لماذا طريقة العمل التالية؟ بماذا مر؟ ما هو تاريخه المدرسي" (Charlot, 1997, p.33-34).



فالتاريخ المدرسي للتلميذ ليس مسار يُمكن دراسته من الخارج ولكنه أيضا سلسلة من التجارب التي اختبرها وفسرها لإعطاءها معنى مُحدد. فعندما يفشل التلميذ مدرسياً، يكون السؤال الأول المفترض طرحه قبل البحث عن العوائق التي يمكن أن يكون قد تأثر بها، هو هل كان يدرس أم لا؟ وكيف كان يدرس؟ لأنه إذا كان لا يدرس أو يدرس بطريقة غير فعالة فليس غريباً أن يفشل دراسياً" (Charlot, 1997, p.90)، وعليه يجب فهم خطاب التلميذ للتمكن من التعرف على العمليات التي تنظم تاريخه المدرسي والتي تُنظم بناء المعنى الذي يصاحب هذا التاريخ.

إذا فتحليل علاقة التلميذ بالمعرفة يُؤدي إلى فهم مساره الدراسي والذي بدوره يقودنا إلى فهم نجاح التلميذ وفشله، لأن تحليل هذه العلاقة هو دراسة للطريقة التي يبني بها هذا التلميذ ذاته كفاعل في المجتمع الذي يُمثل بالنسبة له مكان العيش والعمل، وأيضاً دراسة للطريقة التي يُدمج بها نفسه في هذا المجتمع، وبهذا نصل إلى فكره فردانية التاريخ المدرسي ونسبية العلاقة بين التلميذ والآخر-المعلم-، والعلاقة بين التلميذ ذاته والعلاقة بين التلميذ وعالمه.

والجدير بالذكر أن الكثير من الدراسات والأبحاث الأخرى ضمن حقل سوسولوجيا التربية المعاصرة على المستوى العالمي اهتمت بتحليل علاقة التلميذ بالمعرفة لفهم نجاحه وفشله، منها " التي حاولت البحث فيما إذا كان بناء العلاقة بالمعرفة لدى التلاميذ موجه حسب أصلهم الاجتماعي؟ وهل هناك علاقة جيدة بالمعرفة وعلاقة غير جيدة بالمعرفة تحددان نجاح التلميذ من فشله؟ ثم ربط هاتين العلاقتين بالأصل الاجتماعي للتلميذ، كما انتهى البحث إلى التساؤل عن عوامل أخرى تحدد طبيعة العلاقة بالمعرفة لدى التلميذ ومنها الدور الذي يمكن أن يتمثله المعلم في بناء هذه العلاقة.

وقد توصلت إلى أن ما يمكن تسميته ب- علاقة جيدة بالمعرفة- هو أن يُدرك التلميذ بأن المدرسة تمنحه الفرصة لاكتساب المعارف المختلفة التي يمكن أن تكون مهمة في بنائه اجتماعياً وليس مهنياً فقط، وذلك يكون ممكناً إذا ما اتبع التلميذ الطريقة الفعالة ليصبح تلميذاً جيداً ويسعى لفهم ما يقوله المعلم، لا الاستماع له وحسب، فمن المهم أن يتمثل التلميذ دوراً حيويًا ونشطاً في تعلمه ولا يكون المعلم وحده هو المسؤول عن نجاحه أو فشله، والتلاميذ الذين يمتلكون هذا النوع من العلاقة بالمعرفة يكونون أكثر إبداعاً



وأكثر ارتياحا في دورهم كتلاميذ ويكونون أكثر حفا من غيرهم في النجاح المدرسي" (Allain, 2011)، وقد أكد ذلك Philippe Perrenoud بقوله أن "الامتياز مرتبط بالإرادة وبرغبة التلاميذ في التعلم لا بمكاناتهم وأصلهم الاجتماعي." (Perrenoud, 1986, p.159)

هذه بعض النقاشات والتحليلات والتفسيرات التي حظيت بها مسألة الفشل المدرسي في المجتمعات الغربية والفرنسية على وجه الخصوص.

خاتمة

ربما يكون من النافع في نهاية هذا المقال التساؤل عن إمكانية إستعارة مقارنة "العلاقة بالمعرفة" في حقل البحث حول الفشل المدرسي في المدرسة الجزائرية واستخدام براديفمها لفهم السيرورات التي تؤدي إلى هذا التعثر لمعرفة حدود هذه الإستعارة، وما يمكن أن يُقدم لنا الواقع الجزائري من أدوات مفهوماتية تُعطيهِ خصوصيته، خاصة وأن معظم الأبحاث عندما تنطلق من تفسيرات هوليسستية، تركز على جانب العلاقة بين الأسرة والمدرسة كمحاولة للدخول إلى عالم الفشل المدرسي.

المراجع

1. بورغدة عائشة، 2008. المدرسة الجزائرية والاستراتيجيات الأسرية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في علم اجتماع التربية، إشراف الدكتور عبد الرحمان بوزيدة، جامعة الجزائر 2.
2. بودبزة ناصر، (د.ت). الفهم السوسولوجي لظاهرة الرسوب المدرسي - أزمة تلميذ أم تلميذ في أزمة-، شبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات، جامعة قاصدي مرباح ورقلة.
3. ريمون بودون، 2014. الفرد أولا والفرد أخيرا، العراب. على الرابط: <https://alarab.co.uk>.
4. شعالي المختار، 2015. علاقة المتعلم بالمعرفة، جريدة هسبريس الإلكترونية، على الرابط: <https://www.hespress.com/writers/253343.html>
5. عزيز مشواط، (د.ت). سوسولوجيا الفشل المدرسي، موقع علوم التربية، على الرابط: https://www.hassanlahia.com/2015/08/blog-post_34.html
6. المركز التربوي للبحوث والإنماء، 2018. الدخول إلى الروضة والمدرسة: مشكلات وحاجات، بيروت، لبنان: على الرابط: <https://www.crdp.org/mag-description?id=9424>
7. Allain Juliette, 2011. *A quoi sert l'école ? Le rapport au savoir des élèves*, université d'Orléans.



8. Bourdieu Pierre et Passeron, Jean-Claude, 1970. *La Reproduction. Éléments pour une théorie du système d'enseignement*, éditions de Minuit, France.
9. Bourdieu Pierre; Passeron Jean-Claude, 1964. *Les héritiers: les étudiants et la culture*, les éditions de Minuit, Paris, France.
10. Bernstein Basil, 1975. *Langage et classes sociales : codes sociolinguistiques et contrôle social*, Paris, éditions de Minuit.
11. Raymond Boudon : *L'inégalité des chances (La mobilité sociale dans les sociétés industrielles)*: en ligne, <http://www.persee.fr/doc/rfp>.
12. Charlot Bernard Charlot, 1997. *Du rapport au savoir : éléments pour une théorie*, Anthropos, Paris, édition Economica.
13. Co-construction du savoir : une nouvelle façon d'apprendre et d'enseigner : En ligne www.co-construire-avenir.org
14. Demba, Jean Jacques : *L'échec scolaire et le rapport aux enseignants et enseignantes*, en ligne : [http://www.recherche-qualitative.qc.ca/documents/files/revue/edition_réguliere/numero30\(1\)/RQ_30\(1\) Demba.pdf](http://www.recherche-qualitative.qc.ca/documents/files/revue/edition_réguliere/numero30(1)/RQ_30(1) Demba.pdf)
15. Establet Roger ; Boudelot Christian, 1971. *L'école capitaliste en France*, éditions Maspero, Paris.
16. Gourdin Marie, 2016. *De l'enfant à l'élève: comment engager l'enfant sur le chemin de la reconstruction du métier d'élève en institut Médico-Educatif*. En ligne : <http://dcalin.fr/publications/gourdin.pdf> .
17. Mosconi Nicole, 2005. *Rapport au savoir et rapports sociaux de sexe*, CREF, Paris X-Nanterre, équipe Savoirs et rapport au savoir. Paris.
18. Perrenoud Philippe, 1986. La fabrication de l'excellence scolaire du curriculum aux pratiques d'évaluation, *revue française de sociologie*.
19. Rochex Jean-Yves, 2010. *Apprentissage et apprentissages : le rapport au savoir dans les écoles professionnelles en Suisse: le cas de quatre classes de l'école professionnelle commerciale de Lausanne (EPCL)*, Mathias Howald, Haute école pédagogique. En: <https://core.ac.uk/download/pdf/20656022.pdf> .

